

عظماء قهروا اليأس

عبد الله النديم

يوسف الحمادي



962

9

N13

عظماء قهروا اليأس

عبد الله النديم

بقلم

يوسف الحمادى

الناشر

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى جيلنا الناشئ .

إلى أبناء اليوم ورواد الغد .

إلى طلاب المرحلة الأساسية وغيرهم ..

إليهم جميعا وإلى كل قارئ .

إليهم نقدم هذه السلسلة من حياة بعض عظمائنا ، الذين قهروا
اليأس ، وبددوا ظلامه ، ونجحوا بإرادتهم القوية الجبارة أن يشقوا
طريقهم بين الأشواك والصخور ، وأن يشاركوا بجهودهم الواعية
البناءة في صنع حياتنا الحديثة التي ننعم بما فيها من حرية وعزة
وكرامة .

وتشمل هذه السلسلة حياة :

محمود سامي البارودي ، أحمد عرابي ، علي مبارك ، مصطفى
كامل ، سعد زغلول ، محمد حافظ إبراهيم ، عباس محمود العقاد ،
طه حسين . .

وستظهر إن شاء الله سلاسل تالية حول عدد آخر من البطولات
والأبطال الذين خلدهم تاريخنا ، وكان لهم أثر بارز فيه .
ومن حق هؤلاء العظماء أن نفتح عيون أبنائنا على صفحات من
حياتهم ، تنير الطريق ، وتحبى الأمل ، وتبنى النفوس ، وتنشئ
الجيل الجديد على حب مصر ، والوفاء لها ، والعمل لخيرها في
حماسة وإيمان مخلص صادق .

(١)

مولده

نشأ والد عبد الله النديم ، وعاش شطراً من حياته في قرية « الطيبة » إحدى قرى الزقازيق ، بمديرية الشرقية .
وكانت هذه القرية طيبةً ، كما يدلُّ على ذلك اسمُها ... أرضُها خصبةٌ ، وزروعها متعددةٌ ، وغلاتها وافرةٌ ، تدرُّ لأهلها في أكثر السنين بحاجتهم من الرزق ، فيعيشون في رحابها هادئين قانعين .
ولكن النيل كان يُخلفُها في بعض السنين ، فيفيضُ^(١) بها الماء ، ويحجفُ الزرعُ ، وتقلُّ الثمار ، فيهددُ أهلها الجوعُ والحرمان ، ومع ذلك لا يجدون من يرحمهم من ثقل الضرائب ، أو يحميهم من عسف^(٢) الحكام ، أو يخفف عنهم من ويلات الحياة وأعبائها ، فيعتصمون^(٣) بالرضا والصبر ؛ حتى تنكشف عنهم ما ألمت بهم من شدة .

وعاش والد عبد الله وأسرته في « الطيبة » كما يعيش أهلها ، ولكنه لم يقنع قناعتهم ، ولم يصبر صبرهم ، فضاق بالقرية ، وضائق القرية به ، فعزم على الرحيل منها ، ولكن : ماذا يصنع ؟ وأين يذهب ؟

(١) يفيض : ينقص

(٢) عسف : العسف الظلم والقهر

(٣) يعتصمون : يلتزمون ويتمسكون

فكَّر الرجل ، ثم فكَّر ، وأخيراً استقرَّ رأيه أن يهاجر إلى الإسكندرية ؛ لنشاطها ، وحيويتها ، وسعة أبواب الرزق فيها .

وفي الإسكندرية جلس الرجل على شاطئ البحر الهادر^(١) ، وسبح ببصره بين السماء ، والأمواج والبواخر ، ثم عاد به إلى المراكب والزوارق المنتشرة هنا وهناك .

وقال في نفسه :

وجدتها ! وجدتها ! هتا في هذه السفن مجال عمل ! ولم يترث^(٢) ، بل ذهب إلى « الترسانة » . مقرَّ بناء السفن بالثغر ، وعرض نفسه وحرفته على من بها ، فقبلوه ورحبوا بعمله نجاراً في هذه السفن ، وكانت له خبرته بهذه الحرفة ...

ولم يستمرَّ فيها طويلاً ؛ فما كاد يجتمع له قدرٌ صالحٌ من المال حتى افتتح لنفسه مخبِزاً خاصاً استقلَّ به ، واعتمد عليه في عيشه .

هذا الوالد هو مصباح بن إبراهيم الإدريسي الحسني ، أو السيد مصباح ؛ لأنه ؛ فيما ذكر وتذكر أسرته عنه ، من الأشراف الذين ينتهي نسبهم إلى آل البيت النبوي ، وإلى الحسن بن علي بن أبي طالب من هذا البيت .

وقد كانت حياة هذا الوالد ، كما جاء على لسان ابنه عبد الله الذي يترجم^(٣) له هذا الكتاب ، بين سنني ١٢٣٤ و ١٣١٠ من الهجرة .

(١) الهادر : العالي المتردد الصوت .

(٢) لم يترث : لم ينتظر

(٣) . يترجم : يسوق سيرة حياته

يقول هذا الابنُ عنه :

« كان مولده ببلدة « الطيبة » من قرى الشرقية في اليوم العشرين من شهر ذى الحجة سنة ١٢٣٤ ، ووفاته في الدقيقة التاسعة والعشرين من الساعة التاسعة العربية من ليلة الأحد الموافق ٤ من رجب سنة ١٣١٠ — ٢٢ من يناير سنة ١٨٩٣ ؛ فعمره خمسٌ وسبعون سنة ، وستة شهور قمرية ، وأربعة عشر يوماً

ظلَّ هذا الوالدُ في الإسكندرية شطراً طويلاً من حياته ، تبسّم له الحياةُ وتعَبَسَ ، يلينُ له العيشُ ويَخْشُنُ ، تحلو له الدنيا وتُمِرُّ^(١) ، وهو في كلِّ حالٍ يبذلُ جهده ليشقَّ طريقه بين أشواك الحياة ، وبين المنافسين له من أصحاب المخابر الذين يحترفون خرفته ، ويسعون سعيه .

وفي سنة ١٨٤٣ من الميلاد وُلِدَ له طفله عبدُ الله ، وكانت ملامحُ الطفل الوليد تدلُّ على الحيوية والنجاة وخفة الروح ، وإن لم تحمل دلائل الوسامة^(٢) والجمال .

ولم يأبه الأبُّ أو تهتمَّ الأمُّ بهذه الدلائل ، وسعدا به غاية السعادة ، ودعا كلَّ منهما ربّه أن يكونَ بشيرَ خيرٍ لهما ولنفسه .

(١) تمر : تكون مرة

(٢) الوسامة : الحسن

(٢)

نشأة عبد الله وتربيته

نما عبدُ اللهَ الطفلُ سَوِيًّا^(١) قَوِيًّا ، وملاً حياةَ أبويه بِلُعبه ومرحِه ونشاطِه .
وكَبِرَ الطفلُ ، فبلغ سنَّ التعلُّمِ ، وإذ ذاك دفع به أبوه إلى الكُتَّاب ليحفظَ
القرآنَ الكريمَ ، ويتعلَّم مبادئَ القراءة والكتابة ... ثم لُمَحَّ فيه من الذكاءِ ،
والإشراقِ ، والقدرةِ على التحصيلِ ، ما شجَّعه أن يساعده على متابعة
الدراسة .

وكان الشائعُ من أنواعِ التعليمِ والمعروفُ منه أكثرُ من غيره — التعليمُ
الأزهريّ ، بجوامعِهِ أو مساجده المنتشرة في المدنِ الكبيرة ، فأدخل السيدُ
مصباحُ ابنه عبدَ الله جامعَ إبراهيم باشا بالإسكندرية . وفي هذا الجامعِ قضى
الصَّبِيَّ فترةً ، يتعلم ويحصِّلُ ، ويسألُ ويجيبُ ، ويناقشُ ويجادلُ ، ويتقبَّلُ
ويرفضُ ، ويرضى عن شيوخه حيناً ، ويُعرض عنهم أو يتمردُ على بعضهم في
غيرِ قليلٍ من الأحيان .

وكان من مدرسيه في هذا الجامعِ أربعةٌ جاء ذكرهم على لسانه ، وترددت
أسمائهم في أحاديثه ومذكراته .

وهم الشيخُ محمد جاد شيخُ المذهبِ الشافعيِّ بالإسكندرية ، والشيخُ

(١) سويًا : مكتمل الخلق

إبراهيم السُّرْسِيّ ، والشيخ خفاجة ، والشيخ محمد العشري ، وكان هذا الشيخ أقواهم صلةً به ، وأشدّهم تأثيراً في نفسه .

لكن عبد الله الذي دخل مرحلة الشباب لم يُكْمِل دراسته ، ولم يتابع حياته الأزهرية ؛ ولعل ذلك لأنه ضاق بها ، وبطولها ، وبيعض شيوخه فيها ، وكان كالطائر الذي يريد الانطلاق من قفصه لينعم بجو متحرر ، يتنقل فيه متى شاء وكيف شاء ، وشده إلى هذا الجو ميله إلى الشعر والزجل ، يحفظ منهما ، ويدرب موهبته النامية المتفتحة على البراعة فيهما ..

ونظر الفتى إلى نفسه ، فوجد لها من المميزات ما دفع به إلى هذا الانطلاق .. وجدها تمتاز من بين زملائه في الدراسة بالكثير .. يسمع كما يسمعون ولكنه يفهم أكثر مما يفهمون ، ويقرأ كما يقرأون ولكنه يعي أكثر مما يعون ، ثم هو يلتقط بديهته ما يعجز غيره عن الوصول إليه بعد روية^(١) وإعمال فكر ، ويحفظ من مرة ما لا يحفظه غيره من مرات ، وهو ، بعد ذلك ، يتحدث ، طلق اللسان ، بدأت مواهبه تهبُّ له أن ينظم الشعر ، ويكتب النثر السائع في عصره ، ويرسل الزجل في سرعة ويسر^(٢) .

* * *

وأدرك أبوه ما يدور في نفسه ، فنصح له أن يستمر في دراسته ، ولكن الفتى الناشئ أبى ، وأصر .. فألح الأب ، ولكن إلحاحه لم يغني شيئاً ، وأخيراً ترك ابنه لشأنه وتخلّى عنه ، ومضى الفتى يُعِدُّ نفسه للحياة التي أرادها لها ، عصامياً^(٣) معتمداً على جهده ، واثقاً بما منحه القدر من مواهب وقدرات .

(١) رويه : الروية الثاني (٢) يسر : سهولة .

(٣) عصامياً : العصامي الذي يعتمد على نفسه في تنشئة نفسه



(عبد الله النديم)

(٣)

الفتى بين الوظيفة والأدب

خلَص الفتى للحياة التى أرادها لنفسه .

وبعد فترة لم تطل رآه الناس قد تعلّم مهنة : الإشارات البرقية « التلغراف » ،
وشهدوه أمام الجهاز الخاص بها ، موظفاً من موظفى الحكومة فى ملبسه
الإفرنجي تبث دقات يده بالرسائل البرقية إلى بلاد القطر ، وتستقبل مثل هذه
الرسائل فى دقة بارعة ، وسرعة فائقة .

ولى هذه الوظيفة قضى عبد الله سنوات من عمره ، ومنها أخذ يكسب
عيشه ، راضياً عن حياته الجديدة الطليقة ؛ فقد انزاح عبؤه^(١) عن أبيه ،
وتفتّحت ميوله فى الشعر والزجل ، وشجبت^(٢) بها ذكرياته ، شيئاً فشيئاً ، عن
شيوخه فى جامع إبراهيم ، ولم يبق واضحاً فيها وراسخاً بها غير الشيخ محمد
العشري الذى كان عبد الله يحبه ، ويقدره ويكتب إليه ، ويتلقى رسائله .

وعمل عبد الله فى مكتب البرق بينها ، ولكنه لم يأنس^(٣) إلى الإقامة بها ، ولم
تستقر نفسه بالحياة فيها . وعاش قلقاً . يتطلع أن يُنقل منها ، وكان شعوره فى

(١) عبؤه : حمله . (٢) شجبت : تغيرت وضعف أثرها

(٣) لم يأنس : لم يسترح

ذلك أشبه بشعوره إزاء جامع إبراهيم باشا والدراسة فيه .

وكان طبيعياً أن يُلحَّ^(١) عليه هذا الإحساس ؛ فهو في طبيعته الأصلية ، أديبٌ مرهفٌ^(٢) الحس ، جياشٌ^(٣) الشعور ، يريدُ جواً غيرَ جوا الأقاليم ... جواً فيه غذاؤه الأدبي من الشعر والنثر ، وبه أصحابه من الأدباء ، الذين يبادلهم القول ، وينافسهم في فنون الأدب شعره ونثره ، ومثل هذا الجوا ليس مهياً عن سعة إلا في القاهرة .

ولم يهدأ عبدُ الله ، وظلَّ يسعى حتى نُقِلَ إلى مكتب البرق بقصر الوالدة ، وهو القصر الذي كانت تسكنه والدته الخديو إسماعيل ؛ بما لها في الأسرة الحاكمة من مكانة وسطوة^(٤) .

وفي هذا المكتب جلسَ الموظفُ الجديدُ منتفخاً ، ومنه اتسعت معرفته أو صلته بأساتذة العلم والأدب واللغة ، من أمثال جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، ومحمود صفوت الساعاتى ، ومحمود سامى البارودى ، وعبد الله فكرى والشيخ حمزة فتح الله .

وكان كلُّ يوم يمرُّ به فى هذا المكتب يزيد من هذه الصلات ، ويرقى بمواهبه الأدبية ، فيضيف إليها جديداً من القوة والنماء .

وفي هذا المكتب سَعِدَتْ نفسه ، وسَعِدَ به معارفه ، وكثُرَ تردُّدهم عليه فى عمله ، واشتدَّ اتصاله بهم فى دورهم وقصورهم وندواتهم ، ووجدوا فيه

(١) يلح عليه : يديم الضغط عليه

(٢) مرهف : رقيق

(٣) جياش : متدفق

(٤) سطوة : بطش وقهر

سميراً لا يبارى^(١) ، ونديمياً لا يجارى في أحاديثه وفكاهاته وطرائفه^(٢) ؛ ولهذا لم يكن عجباً أن يلقبهُ أصدقاؤه منذ وضحت فيه هذه الموهبة بلقبِ النديم .
وحرصَ عبدُ الله أن يلقبَ بهذا اللقب ، وأن يُعرفَ به . قال في إحدى رسائله إلى أستاذه الشيخ محمد العشري ، معرّفاً بياحث الرسالة .

غلامُك الشَّهيرُ بالنَّديمِ من صار في البيان كالنسيم

ولم تطلَّ حياته في هذا المكتب ، ولا عمره في الوظيفة .
كان على رأسِ غلمانِ القصرِ وعبيده وحشمه^(٣) خليل أغا ، وكانت لهذا الأغا منزله عند الوالدة ، وكلمته النافذة في شئون الخدمة بالقصر .. ويبدو أنه أخذ على النديم ما لم يعجبه من مسلكه وتصرفه ، فعُصِبَ عليه ، وأمر بعزله من الوظيفة وإقصائه عن القصر .

وخرجَ النديمُ من المكتب ، وهو يحمّدُ اللهَ على أنه غنمَ حياته ، ونجا من براثن^(٤) هذا الأغا الذي يأمرُ وينهى ، ولا يعقبُ^(٥) عليه إلا مثل الوالدة والأمراء .

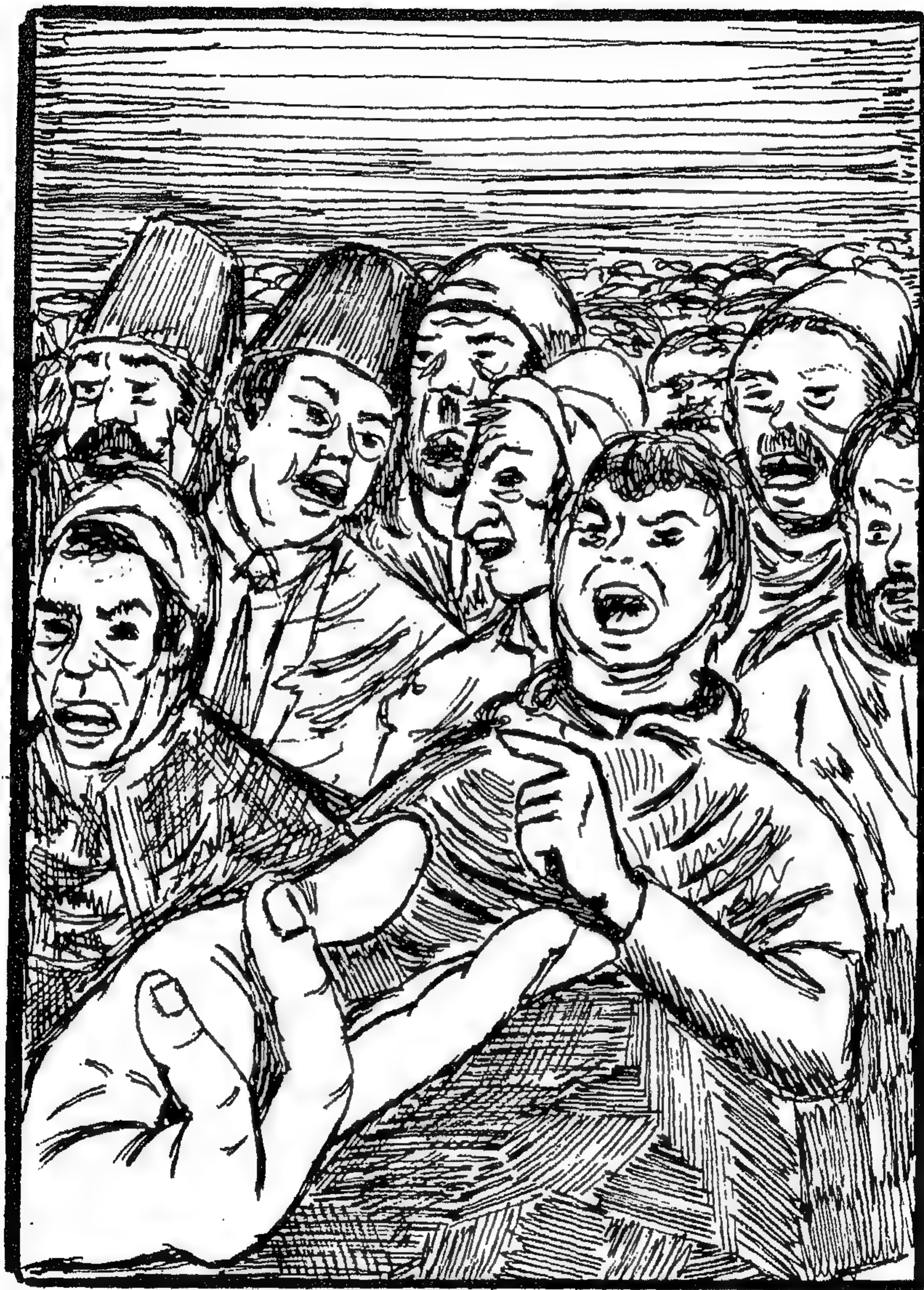
(٢) طرائفه : نوادره

(٤) براثن : مخالب

(١) لا يبارى : لا يسابقه أحد :

(٣) حشمه : خدمه .

(٥) لا يعقب عليه : لا يغير منه



(٤)

النديم في الأقاليم

جلس النديم يفكر ، ويمعن في التفكير .

لقد فقد الوظيفة ، وكانت له مصدر رزق آمن مستقر ، وإن كان ما تدرُّ به^(١) قليلاً لا يفى بمطالبه ومآربه ... وعرض نفسه لتيارات القصر ، وما كان أغناه عنها وأبعده منها ! وخطر له أن يعتذر للأغا ، أو يتوسل إليه ببعض عارفه ، ولكن هذه الفكرة لم ترقه^(٢) ؛ لصرامة هذا الأغا وسوء طبيعته ، وقد أصبح على أهبة الرحيل من القاهرة التي سعى إليها وإلى جوها الأدبي ؛ خوفاً من نقمته ومكايدته .

كل ذلك بعث الندم والأسى في نفس النديم ، ولكن سرعان ما لمع شعاع من الأمل والرضا في ذهنه !

لقد تفتحت نفسه للخلاص من حياة الوظيفة وقيودها ، وأحب أن يعيش لأدبه وفنه ، وأن ينتقل من دقات جهاز « البرق » إلى دقات القلوب ، ومن تيار ضرباته إلى تيار العواطف والمشاعر ، وعادت الأقاليم فلمعت في عينيه ، وآثر ما بها من عيش هادئ آمن ، على القاهرة ، وقصر الوالدة ، وأخطبوط الأغا

(١) الجاه : المنزلة والقدر (٢) مهد : هياً وسهل

ومكايده .

وعادَ إلى الأقاليم ، فتلقَّفه أثرياءُها ؛ حبًّا في سمره وأدبه ، ورغبةً من أحدهم
في الزهو به وبمدائحِهِ على منافسيه في الجاه^(١) والثراء .
ومن الأقاليم الذي رحل إليها « المنصورة » ، وفيها لقيه تاجرٌ كبيرٌ ، فتح له



(١) الجاه : المنزلة والقدر .

باب داره ، ومهد له^(١) سبيل الرزق ، فأسس له حانوتاً لبيع المناديل والقمصان والجوارب وما إليها ... ونسى هذا التاجر أنه أمام أديب ، مهنته الكلمة واللعب بالعواطف والمشاعر ، وليس أمام تاجر ، يحسن البيع والشراء وحساب الجنيهاً والقروش .

وأفلس دكان النديم ، أو دكان التاجر الذي يعمل به النديم ، ويبدو أنه نحجل من نفسه وموقفه ، ففكر في الرحيل من المنصورة ، مع ما نعيم به فيها من إقامة طيبة ، وصحبة أدبية حبيبة إلى نفسه ، ومع أن التاجر لم يغلق بابه في وجهه ، فكان يطوف^(٢) ما يطوف . ثم يعود إليه .. تحدث النديم عن بعض أصدقائه من الأدباء في المنصورة ، وموقفه منهم ، فكان من حديثه :

« قال حسبي^(٣) هؤلاء من المدن والقرى ، فكل الصيد في جوف القرا^(٤) ، فعاهدتهم عهدته ، وأخلصهم ودّه .

وانتدب منهم اثنين لأنسيه وسرور نفسه ، إلا أن الدهر الغدار لم يرض له قرب الدار » .

* * *

دعاه الشيخ أحمد أبو سعدة عمدة « بدواي » بإقليم الدقهلية ، فذهب إلى بلديته ، وأقام في جواره فترة ، يعلم أولاده ، ولكنه شيئاً فشيئاً لم يجد الرعاية التي كان يرجوها من العمدة أو بلديته ، فأطلق فيهم لسانه بأقسى الهجاء . ونزل بطنطا .

(١) مهد : هياً وسهل

(٢) يطوف : يجول هنا وهناك .

(٣) حسبي : يكفيني

(٤) القرا : الحمار الوحشي ، « وكل الصيد في

جوف القرا » مثل يضربه المرء ليدل على أنه حصل على ما لم يحصل عليه غيره

وهناك التقى بشاهين باشا مفتش الوجه البحرى ، وكان هذا المفتش يؤدّ
لورآه ؛ لأنه سمع أغنية ، طرب لها ، فسأل عن قائلها ، فأجيب بأنه النديم ،
فظل يتساءل عنه ، حتى أتيخ له لقاءه .. ومطلع هذه الأغنية قول النديم :
سلوه عن الأرواح فهى ملاعبه وكفّوا إذا سلّ المهند حاجبه
وقد أعجب شاهين باشا بالنديم وأحاديثه وسمره . فعقد له مجلساً أدبياً
فخماً يتحدّى به زعماء الأدب الشعبى فى الغربية .. وفى وصف هذا المجلس
يقول النديم :

« عقد الباشا لذلك مجلساً أمام بيته بطنطا ، وأجلسنى بينه وبين المرحوم
جعفر باشا مظهر ، وقد وقف الناس ألوفاً والعساكر تدفعهم عنا ، ثم ابتدا
الشيخ ، فقال :

أول كلامى حمد الله ثم الصلاة على الهادى
ماذا تريد يا عبد الله قدام أميرنا وأسيادى
فأجابه النديم :

إنى أرى ——— أحمد ربى ثم الصلاة على المختار
وإن كنت تطمئع فى أدبى أسمعك حسن الأشعار «
ودخل به الشيخ فى فنون الأدب الشعبى ، والنديم يباريه .. حتى أثار
إعجاب الحاضرين بقدرته وبراعته . وخلال هذه الرحلة فى الأقاليم أشرف
على ضياع بعض الأثرياء ، وأخيراً فكر فى العودة إلى بلده الذى شهد مولده ،
وطفولته ، وخطاه الأولى على طريق الحياة .

(عبد الله النديم)

(٥)

النديم بعد جولته في الأقاليم

عاد النديم من جولته الطويلة في الأقاليم إلى الإسكندرية ، وكان لهذه الجولة أثرها الكبير في نفسه .

رجع وقد التحم بالشعب ، وعاش بين آلامه وآماله ، ورأى بعيني رأسه الصور الأليمة التي عاش وما يزال يعيش فيها الكادحون المعذبون .

ونضجت على نيران المنافسة بينه وبين رواد^(١) الأدب في الأقاليم مواهبه ، فكان كاتباً ، خطيباً . شاعراً ، رجّالاً ، متصرفاً في ألوان الأدب الشعبي على اختلاف صورها وأساليبها ، وكان لا يجارى في حضور بديته ، وغزارة محفوظه ، وقدرته الفذة^(٢) على التأثير في سامعيه ، بالعربية إذا شاء ، وبالعامية إذا أراد .

وتحوّل من جوّال مشغول بنفسه وهموم عيشه إلى وطني مشغول بوطنه ، وبالمآسى التي مرّت وتمرّ به على يد أسرة محمد علي .

حقاً ! لقد بنى هذا الحاكم دولةً ، ولكنه هدم بخروجه على الخليفة العثماني دولةً كبرى ، هي الدولة الإسلامية ، و « قد ارتكب هذا الأمير ما يرتكبه كلُّ

(١) رواد الأدب : طلائعه .

(٢) الفذة : النادرة

مؤسس أمر خطير ، من ضرب وتعذيب ، وقتل وتغريب ^(١) ... وجاء إبراهيم باشا ، فكان عماد أبيه في فتح الفتوح وتمهيد الحكيم . إلا أنه كان ، كما يقول النديم ، « غضوباً ، سفاكاً ، باطشاً ، فتاكاً ، لا يبالي في أي عضو أغمد ^(٢) سيفه » ، وجاء عباس باشا الأول فحارب التقدم ، ورجع بالبلاد إلى الوراء ، وامتلاً دماغه بالخرافات ، « فخاف من السحرة فاقتفاهم ، وجمع منهم مئيناً ونفاهم ، ثم أخذ يتجسس على الأعيان » ، وأرسل الكثير منهم إلى « الليمان » ، وقد سعى في قتل عميه حليم باشا ، ومحمد سعيد باشا ، وأحسن الأميران الخطر ، فخرجوا هارين ليلاً في زبي النساء .

وانزاح عباس بعد فترة من الحكم أليمة ، الحكام فيها جهلة ظالمون ، من الأتراك والشراكسة ، أما أبناء مصر فمبعدون عن الحكم ، وهؤلاء الحكام يكرهون الفلاح ، ويحتقرونه ويرونه عبداً في أيديهم ، يتصرفون فيه ، كما يتصرفون في السوائم ^(٣) .. « القواص الحقيرون منهم يضرب العمدة الكبير ، والبواب الدليل يصفع السيد الجليل ، والمأمور دائر في البلاد بالعدة . ورجال السوء المستعدة ، يضرب النساء والرجال ، والخدم والعيال » .

« كأن الدار واد فيه مرتقى مباح كل ساكنه بهيم »

كذلك كانت مصر . وكانت الأسرة الحاكمة ، حتى جاء محمد سعيد

(١) تغريب : تشريد . (٢) في أي عنق أغمد سيفه : جعل العنق غمداً له

(٣) السوائم : البهائم الراحية .

باشا ، فكان فيها نادرة حكامها ..

بدأ فأسس في مصر حزبا وكانت لا تسمع عن الأحزاب ، وبسط فيها الأمن وكانت لا تعرف إلا الخوف من الحكمة ، ووزع الأرض وكانت بيد القائمين على الأمر ، وطرد الظالمين وبطانة السوء .

فاستقرت النفوس واستردت أنفاسها ، ودفع الفلاحين إلى دائرة الضوء ، بعد أن كانوا في ظلام حالك^(١) ، واختار كثيرا من أبناء الوطن في الإدارة ، وفتح أبواب الجيش لأبناء العمدة ؛ ليكونوا حماة الوطن وعدته ، ولم يمد يده للاستدانة ، أو ينغمس في اللذات والشهوات ، أو يبدد أموال الدولة ، أو يطمع فيها ، بل كانت فيه نزعة دينية ، تدفعه إلى خشية الله^(٢) تعالى ، والبعد عما يَغضبه ، وكان واسع الأفق فألف بين قلوب شعبه ، ولم يثر الفرقة في الجيش بين المصريين والأتراك والشراكسية .

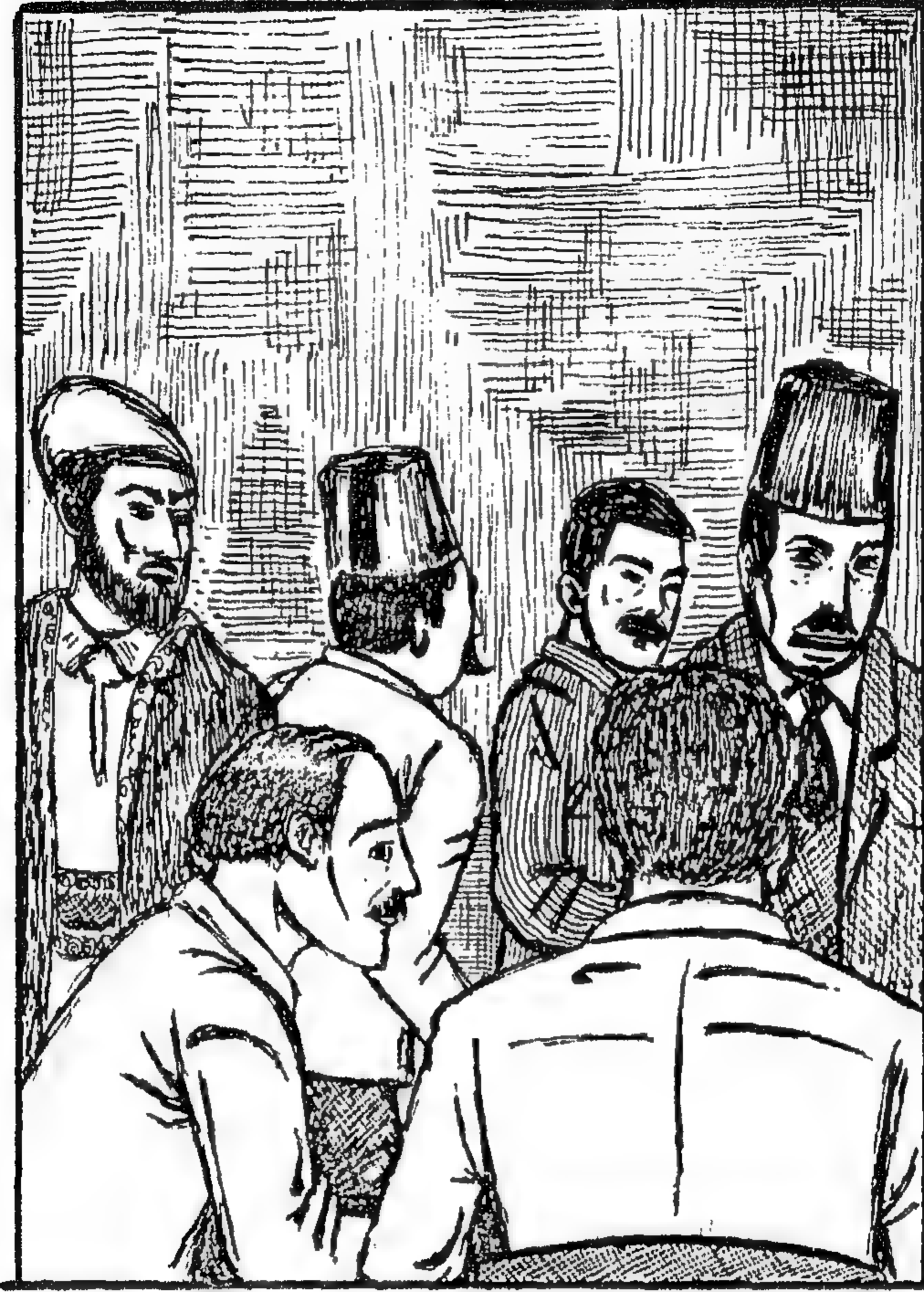
وكان ممن قربهم إليه من المصريين حسين حلمي ابن عم أحمد عرابي ، وأحمد عرابي الذي اتخذ « ياورا » له .

وجاء إسماعيل باشا سنة ١٨٦٣ ، فهدم ما بناه سعيد ، وشهد النديم ، وهو في الإسكندرية ، كثيرا من صور الهدم والتخريب .

رأى هذا الحاكم سلفه يتقرب من المصريين ، ويتودد إلى الفلاحين ، فعاد هو إلى احتقارهم وإذلالهم ؛ كأنهم عبيد في ضياعه وضياع أسرته .

ووجده يؤلف بين طبقات الأمة ، ويكون من الأتراك والشراكسية والمصريين في الجيش وخارج الجيش وحدة قوية متماسكة ، فجاء في تفريق

(١) حالل : شديد السواد . (٢) خشية الله : الخوف منه .



وحدثهم ، وإشعال نار العصبية بينهم .. جاءه « خسرو » باشا ، أحد كبار رجال جيشه من الشراكسة ، وشكا إليه أحمد عرابي ، لأنه ردَّ على سبِّه له وللمصريين والعرب بقوله :

« إن الفلاح اسم قبيح عندك ، ولولا ما رأيت سعدك ، فإنه سيّدك الذي سباك^(١) بنعمته ، ومولاك الذي أعتقك بمنحته^(٢) ، وهو السيّد وأنت العتيق » .

(١) سباك : أسرك .

(٢) منحته : عطائه

فغضب له الخديو ، وأمر بأن يُعقد مجلسٌ عسكريٌّ لمحاكمته ، وعُقد المجلسُ
فبرأه ، وكان من قول رئيس هذا المجلس :
« لا لومَ على « عرابي » فيما ردَّ به على « خسرو » بعد أن سبَّ جنسيته ، ووجه
كل عيبٍ إليه » .

وزاد غضبُ إسماعيلَ « لخسرو » ، وسخطه على « عرابي » ، فأمر بإقضائه
من الخدمة ، ولكنَّ بطانته خوفته العاقبة فاكتمت بنقله إلى نظارة الجهادية .

وعرف إسماعيلُ أن سعيداً يحنو على الكادحين ، فلا يرهقهم بالضرائب ،
ويقول في بعض أحاديثه كما ذكر النديم :

« أنا أسدُّ ديونَ الحكومة من مالي ومالها ، من غير أن أوقع الفلاحين في
أحوالها » ، فجاء هو وزاد من هذه الضرائب وأكثر من أنواعها ، حتى لا يكاد
الذهنُ يتصورُ كسباً لم تفرضْ عليه ضريبة .

وشهد هذا الخديو السنةَ الناسَ تُثنى على سعيدٍ لعفته : وعدمِ إغراقه في
اللذاتِ وألوانِ الترفِ والزينة ، فكان على النقيضِ منه . يصوره النديمُ فيقول :
« غارقٌ في لذاته ، سائرٌ خلفَ شهواته ، لا يرفعُ إلا الأراذلَ ، ولا يقربُ إلا
الأسافلَ » ... « سلَّطَ بعضَ رجاله لإكراهِ الأهالي على تسليمِ الأَطْيَانِ ،
فاغتصبوا له تفتيشَ المنيا ، والروضة ، ومغاغة ، وغيرها ..

ثم استعملَ حسنَ راسمٍ على الأقاليمِ البحرية ، ليتممَ الخرابَ ، ويعمِّمَ
البلية^(١) ، فاستخلصَ له تفتيشَ الصافية والشباسات وبلقاس وبيلة وبشيش

(١) البلية : البلاء .

وغير ذلك من التفاتيش ، والعربون^(١) السلب ، وبقية الثمن الضرب « .
ووجد الأجانب هذا الخديو يغرق ، ويغرق مصر في الديون ، فعملوا على
عزله عن العرش ، وعزلوه عنه سنة ١٨٧٩ ، وولى الأمر بعده ابنه توفيق ،
وكان من مبررات ذلك حماية المال الأجنبي من الضياع .

* * *

كانت هذه الصور كلها تمر بذهن النديم ، فيسجلها صورة بعد صورة ،
وحلقه في أشد المرارة لما أصاب مصر ، ونفسه في أشد الأسى لها : والحماسة
لإنقاذها .

* * *

(١) العربون : مقدم الثمن .

كفاح النديم قبل الانضمام إلى حركة عرابي

كان النديم يرى أن مصرَ في خطر .. لقد ترك إسماعيلُ الحكمَ وهي كالغريقة .. الديون باهظة^(١)، وطوائفُ الشعب متفرقة، والجيش منقسمٌ على نفسه ؟ « فنوبارُ » رئيسُ الوزراء مع الشراكسة والأتراك ، والمصريون فيه خَلَفَ « عرابي » بقلوبهم وأرواحهم ؛ لأنه أقامَ من نفسه محامياً لهم ، مدافعاً عنهم .. يقول فيه النديم :

وأصبح سيداً بين الموالى تُشيرُ إليه أطرافُ البنان^(٢)
تملكُ حُبّه من كلِّ قلبٍ وأدركَ ما أرادَ من الأمانى

* * *

وسأل النديم نفسه : كيف ينهضُ بواجبه في هذا الجوّ ؟ إنه فردٌ ، والحمل ثقيلٌ ، فماذا يفعلُ ؟ لم يتأخر ، وتقدّم للكفاح ، ثم زادَ منه حين زادَ « توفيقُ » الطينَ بِلَّةً ، وذلك بعد أن خدعه المراقبُ المالىّ الإنجليزى ، « فجمعوا الديونَ بلا تحقيق ، وكوّناها ، كما جاء في مذكرات النديم ، بالتلفيق ، وأوصلا تلك الديونَ ، إلى مائة مليون » ، ومضى « توفيقُ » في مأساته ، فرهن المديريات للدائنين ، وملاَ وظائف الدولة بالغربيين مع الأتراك والشراكسة .

(١) باهظة : ثقيلة شاقة .

(٢) البنان : أطراف الأصابع .

لم يحمل هذا العبء^(١) الضخم الثقيل نفس النديم على التخاذل والتراجع ..
لقد صحت عزيمته على الكفاح ، وبدأه بالدعوة الفردية ، ولكنها لم تجتذب
الخائفين الواجفين^(٢) ، فانتقل إلى الدعوة الشعبية وإلى صفوف الفقراء
الكادحين .

وكان ذلك منذ أواخر عهد « إسماعيل » واستمر في عهد « توفيق » . يقول
النديم :

« كنت .. أنكر على أهل البلاد وقوفهم تحت رذم^(٣) الاستبداد ، وكلما
نبت عاقلاً أسكتني ، فإن ألححت عليه بكنتي^(٤) ، فلم أجد طريقاً لتنبيه
الوجهاء والأمرأ إلا بعصية من الفقراء » .

وكانت له على درب^(٥) الكفاح خطوات ، تنقل فيها خطوة خطوة ، أو جمع
بين ما استطاع منها :

.. عمل على إنشاء الجمعية الإسلامية ؛ لتبث في النفوس روح الإسلام ،
وتنتزع منها دوافع الجبن والفرع والتردد ، وتوقظ الغافلين الخاملين على ما
يحاك لهم بأيدي الحكام والأجانب من مكائد ومؤامرات خبيثة جسيمة .

.. بدأ بإنشاء أول مدرسة أهلية بالإسكندرية ؛ أملاً في انتشار النور بانتشار
العلم ، ورغبة في الخروج به من ظلمات العسف^(٦) والاستبداد إلى نور الحرية
والحياة الصحيحة .. و « قد افتتح هذه المدرسة ، كما يقول ، في حفل

(١) العبء : الحمل

(٢) الواجفين : المضطربين الذين تدق قلوبهم من الخوف .

(٣) رذم الاستبداد : الرذم الحجارة المتساقطة .

(٤) بكنتي : وبخني .

(٥) درب : طريق .

(٦) العسف : الظلم .

جمع الأمراء والوجهاء ، والوزراء ، والنبهاء ، والمحافظ ، ومأمور الضبطية ، وجملة من أمراء الجهادية .

.. جدّ في نشر الجمعيات الإسلامية والمدارس الأهلية في غير الإسكندرية .
.. أقام من نفسه خطيباً في ندوات هذه الجمعيات وفتح الطريق بها لغيره من الخطباء والمتحدثين ، ولم تقف هذه الخطابة عند الإسكندرية أو القاهرة ، بل امتدّت إلى الأقاليم ، وازدادت بازدياد المناسبات الداعية إليها .

ولعله كان أول من فتح الباب لمثل هذه الخطابة في العصر الحديث .. يقول عن حفل افتتاحه لأول مدرسة بالإسكندرية :

« قمّت فيهم خطيباً ، وأسمعتهم كلاماً رطيباً^(١) . وأطلت والناس بين ناقد ومحقق ، ومحيّد^(٢) ومصنّف ، فكنت أول خطيب مصري وقف بين الحكام والظلام وفتح فاه بكلام » .

ويقول عن أثر خطابته في الأقاليم :

« أخذت أقلب في البلاد ، وجاهرْتُ بالتضاد ، ولبست ثوب الجلد^(٣) ، وتابعت الخطب في كل بلد ، وحركت الأفكار حركة لا سكون لها ، ونشرت مظالم الحكام وأعمالها ، وناديت بهدم دعامة الاستبداد ، وكسرت قيد الاستعباد » .

.. جدّ في إشاعة المحبة بين الأقباط والمسلمين ؛ حتى يسدّ الباب في وجه من يعملون على التفريق بينهم .

.. ألّف الروايات الوطنية والقومية . كروايتي « الوطن » و« العرب » .

(٢) مجند : مؤيد

(١) رطيباً : لينا ناعماً

(٣) الجلد : الاحتمال

.. ساعدَ على إنشاءِ بعضِ الصحفِ وحرَّرَ فيها ، كالمحرّوسة
والعصر الجديد ، وقام بإصدارِ بعضها سنة ١٨٨١ ، كصحيفة « التنكيت
والتبكيث » ، ثم استعاض عن هذه الصحيفة بجريدة « الطائف » التي جاهرَ
فيها بجهادِه الوطني .

* * *

وهكذا كان النديمُ يقودُ تيارَ الجهادِ الوطنيِّ فيوقفُ النُومَ ، ويحرِّكُ العقولَ ،
وينبِّهُ المصريين إلى المخاطرِ والمظالمِ التي تحيطُ بهم في عهدِ توفيق ، في الوقتِ
الذي كان فيه « عرابي » يقودُ تيارَ الجهادِ العسكريِّ داخلَ الجيشِ ، وكان كلُّ
من « النديم » و« عرابي » على صلةٍ بصاحبه وبنضاله ، كما كان كلُّ منهما يؤيد
الآخرَ ، ويدعمُ جهوده .

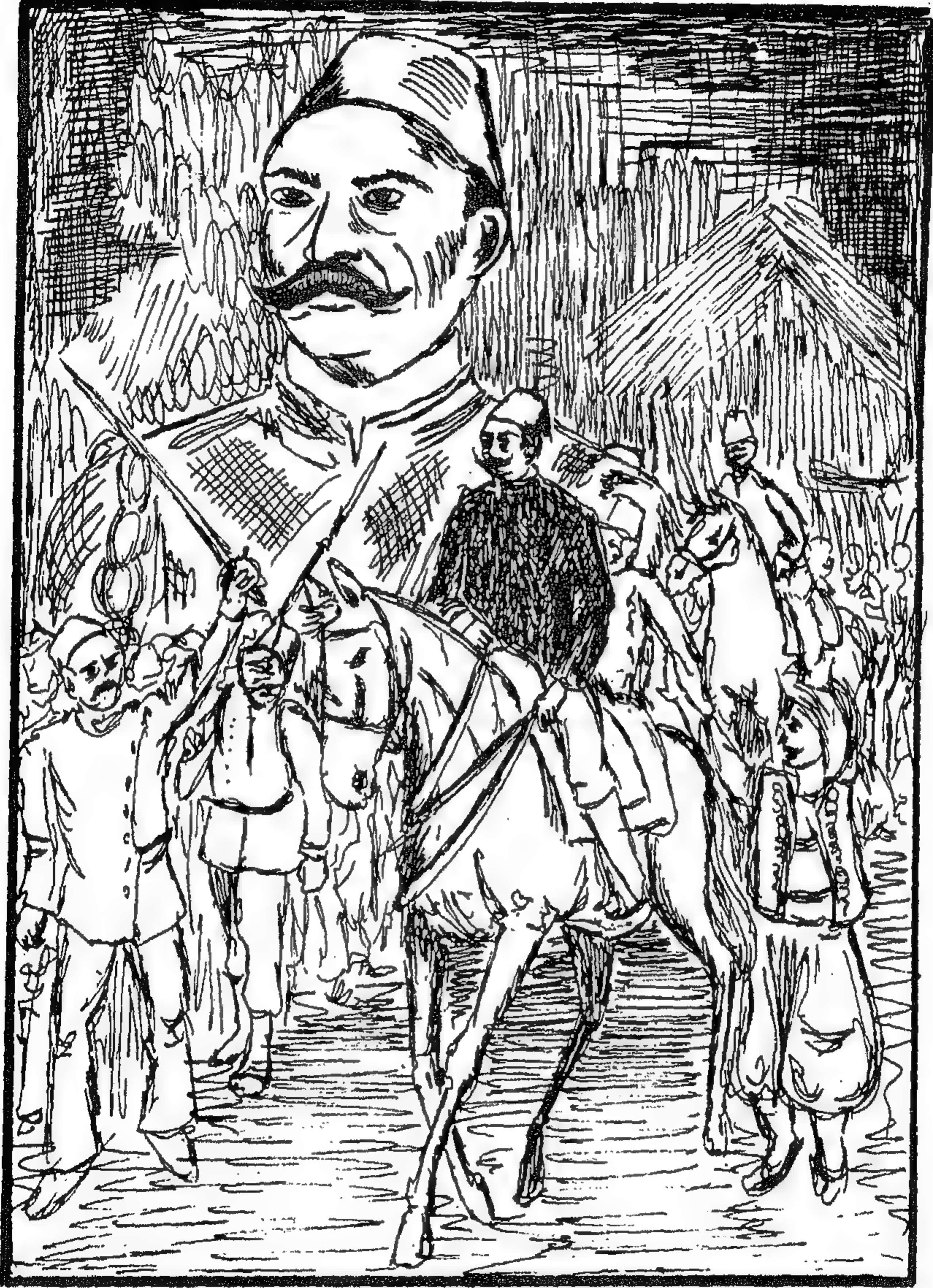
وكان الطريق الذي يمشي فيه النديمُ شاقاً ، مليئاً بالأشواك ، تهدُّه في كل
حركةٍ به عيونُ الخديو وأذناؤه ، وتراقبه جواسيسُ النظارة التي يرأسها
« رياض » باشا ، والنديمُ في طريقه ، يمضي ولا يتراجعُ ، ويعزمُ ولا ييئسُ ..
وضاق به « رياض » فطلب إلى الخديو أن يصدرَ أمره بنفيه ، ووافق الخديو ،
وكاد يُنْفَى النديمُ خارجَ مصرَ .

وهنا برزَ لهما أحدُ رجالِ الجيشِ من المصريين الوطنيين . ذلك هو علي باشا
فهَمِي الذي هدَّدَ ، وقال :

« إن نديماً منا معشرَ الجهادية ، وإن لم يحمل سلاحَ العسكرية ، ولئن
أخذتموه بغتة^(١) من البلادِ حافظنا عليه بالأرواح والأجناد »

(١) بغتة : فجأة .

وعند ذلك تراجع الخديو ، وتخاذل رياض ، فسلمَ النديم .



(٧)

النديم قبيل ثورة عرابي

كان لجهاد النديم أثره في الحركة العسكرية بقيادة « عرابي » .. فقد تنبه المصريون خارج الجيش ، على صيحة هذا المناضل ، ورأوا فيها بارقة الأمل في الخلاص مما هم فيه من ظلم وظلام وضياع ، كما تنبه عليها العسكريون داخل الجيش ، وأحسوا أن هذا الأمل معقود بهم قبل غيرهم ..

وشيئاً فشيئاً اشتدت الصلة بين الزعيمين : زعيم الجهاد المدني عبد الله النديم ، وزعيم الجهاد العسكري أحمد عرابي ، وكان لذلك أكثر من دافع ؛ فكلاهما ينتمى إلى الشرقية ، وكلاهما مصري وطني ، وهما من الأشراف ، وقد نذر كل منهما نفسه لإنقاذ مصر من الهاوية^(١) التي انحدرت إليها .

وأدت هذه الصلة ، مع اليقظة التي حرّكها النديم ، إلى وحدة الكلمة بين الجنود داخل الجيش والمصريين خارجيه . يقول :

فَظَن أَهْلُ الْبِلَادِ ، « فَوَحَّدُوا كَلِمَتَهُمْ وَكَلِمَةَ الْأَجْنَادِ ، وَنَادَوْا بِصَوْتِهِم الْعَلَنِيِّ ، وَتَسَمَّى الْجَمُوعُ بِالْحَزْبِ الْوَطَنِيِّ » .

وكان من نتائج هذه الوحدة :

(١) الهاوية : الحفرة السحيقة .

.. أن اشتدَّ سَاغِدُ « عرابى » ، وطالت ذراعُه ، فقويَتْ على المقاومة والرَّدْع .
.. أن أعلنت الحركة العسكرية في الجيش عن نفسها ؛ حتى إن الضباط ، كما يقول النديم ، عقدوا محافل خطابية ، ومجامع تهذيبية ، وقام فيهم « عرابى » بخطب لو وُجِّهَتْ إلى الحديد لذاب ، ووَعِظَ لو طَرَقَ أذن إبليسَ لتاب .
.. أن أفواج المصريين ، ازدادوا إقبالاً على الحزب الوطنى ، وانضماماً إليه .
وكان النديم شعله لا تحبو^(١) ولا تنطفئ ، يلهبُ النفوسَ لتنضمَّ إلى هذا الحزب ، كما كان نجم الخطابة في كلِّ المحافل التى تُعقدُ لذلك .

وبرح^(٢) الخفاء ، وبدأت الحرب بين حكومة الخديو « توفيق » برياسة « رياض » ، والمصريين في الجيش بقيادة « عرابى » ، والنديم من وراء ذلك يتابع ويشجّع ويناصر .

وجزت الأمور سريعة !!

« رياض » يكيّد « لعرابى » وحزبه ، و« عرابى » يردُّ كيده في نحره^(٣) ، وأخيراً دبّر « رياض » مؤامرة خبيثة للقبض على ثلاثة من قادة المصريين في الجيش ، هم : « عرابى » و« على فهمى » و« عبد العال حلمى » .

وقام عثمان رفقى ناظر « الجهادية » في نظارة « رياض » بتنفيذ المؤامرة ، دعا هؤلاء الثلاثة إلى ثكنات عابدين ، وخذعهم بأنهم سيشاركون في الاحتفال بزفاف إحدى الأميرات . ولما أصبحوا داخل الثكنات باغتهم^(٤) بعضُ الجند بالقبض عليهم .

* * *

(٢) برح الخفاء : انكشف الأمر ووضع
(٤) باغتهم : فاجأهم

(١) لا تحبو : لا يتضاءل نورها
(٣) نحره : النحر أعلى الصدر

وعند ذلك شعرت بعض الفرق المصرية بالمؤامرة ، فعجلت بمحاصرة الثكنات ، وحماية القادة المحاصرين ، ففرع مدبرو المؤامرة ، وفرّوا من النوايا كالأرانب مضطربين مذعورين^(١) .

وأدرك « عرابى » أن الأمر أخطر من أن يقابل بالصمت أو الاستسلام .. فقاد بعض الفرق المصرية إلى قصر عابدين ، فطوّقته^(٢) .

ونظر الخديو إلى هذه الفرق ، فانخلع قلبه ، واستدعى بعض قناصل الدول ليساندوه في موقفه الرهيب^(٣) .. وصوّر النديم هذا اللقاء . قال :

سأل الخديوي أحمد عرابى :

— لم جمعت حولى هؤلاء العساكر ؟

قال :

نطلب سقوط الوزارة جالبة الغمة^(٤) ، وفتح مجلس الشورى للأمة ، ووضع حدود للحاكم والشرعية ، وسنّ قانون لمعاش الجهادية .

قال :

هذا ليس من وظيفتك ، فلم تظاهرت بشيعةك^(٥) ؟

قال :

— لست أطلب وأنا عسكري الصفة ، بل أنا نائب هذه الأمة الواقفة .

اهتز الخديو ولكنه تظاهر بالتعاسك ، وتشجع وهو كالفأر المذعور الذى

(١) مذعورين : فزعين خائفين .

(٢) طوقته : حاصرته .

(٣) الرهيب : المخيف

(٤) الغمة : الكرب والهم

(٥) شيعةك : أتباعك

أطبقت عليه المصيدة ، وراح يسأل أعوانه وقناصل الدول من حوله فنصحوا له أن ينزل على طلبات « عرابي » ، فنزل عليها ، وأقال وزارة « رياض » باشا ، وولى وزارة شريف باشا ، وعهد إلى محمود سامي البارودي بنظارة الجهادية .

هلل الناس وكبروا لانتصار كلمة الشعب بقيادة « عرابي » ، وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٨٨١ ، أما النديم فقد التحم به ، وصار لسان حزبه ، يلقاه في كل خطوة من خطوات النضال^(١) . ويشركه في كل اجتماع يعقد لتبادل الرأي والمشورة في مهام النضال الوطني ، ومع ذلك لم يكن مجرد ظل له ، بل كان مستشاراً مؤتمناً ، صاحب رأي وفكر وعقيدة .

عارضه النديم حين قبل رئاسة « أبي سلطان » لمجلس الشورى ، وقال له :
« إنه تلميذ مدرسة الظلم الويل^(٢) ، وتربية الخديو إسماعيل ! »

فأجابه « عرابي » :

« لم تغد^(٣) بعثك ما في القلب ، ولكن لا بد للصياد من صيد الكلب »
وعارضه في قبوله منح بعض الرتب لبعض العسكريين دون بعض ، ولكنه اعتذر بعدم اتساعها لغير من ظفر بها .

* * *

(٢) الويل : الثقل .

(١) النضال : الجهاد

(٣) لم تعد : لم تتجاوز .



النديم والثورة العرابية

كان من الطبيعي ألا تقف قصة الصراع بين الخديو وحكومته و«عرابي» وأنصاره عند ما حدث في لقاء عابدين ، وكان كل شيء يُنذر بأن فصولها الأخيرة والأليمة وشيكة^(١) الوقوع .

النديم يُحسُّ الخطر الذي ينتظر زعيم الثورة أحمد عرابي ، وهو في قمة نصره .. فيقول مصوراً انصرافه بالجيش من عابدين :

« انصرف (عرابي) والقلوب ترجف^(٢) عليه ، وعيون الأمم تنظر إليه » .

ثم لا ينسى أن يؤدّي للنصر واجبه ومراسمه ، من الإشادة بالجيش^(٣) وقائده ، ومن الاعتزاز بعودته الظاهرة من عابدين ، ورجعة فرقه إلى الأماكن التي عيّنت لها بعد هذا النصر الذي لم تُسْفك^(٤) فيه الدماء .

والخديو يسير في سياسة ذات خطوط ثلاثة : الأول الدس « لعرابي » عند الخلافة العثمانية في تركيا ، وتصويره في نظرها جندياً متمرداً^(٥) ، ثانياً على السلطان ، حريصاً على الانفصال عنه وعن خلافته ، والثاني الاعتماد على الأتراك والشراكسية في تدبير المؤامرات للانتقام من «عرابي» والقضاء على

(١) وشيكة : قريبة .

(٢) ترجف : تهتز وتضطرب خوفاً

(٣) الإشادة به : مدحه والثناء عليه .

(٤) لم تسفك : لم تسل .

(٥) متمرداً : عاصياً خارجاً على الطاعة .

حركته . والثالث التقربُ إلى « إنجلترا » ، لتكونَ عندَ دعوتِهِ حينَ يناديها بالإسراعِ إليه لحمايته وحماية عرشِهِ من « عرابي » وثورته .

أمّا « عرابي » فكان يُحسُّ الخطرَ ، ويفتحُ عينَهُ وعيونَ أتباعِهِ على كُلِّ حركةٍ مشبوهةٍ للخديو وشيعته ، وقد سرَّه أن أمرَ الوزارة صار إلى محمود باشا سامي البارودي ، وهو من أعوانِهِ المخلصين له . ولمصرَ والمصريين . كما سرَّه أنه عمِلَ على التقربِ من السلطانِ ورجاله ، واستطاع أن يكسبه إلى جانبه فترةً ، أقام فيها حجاباً بينه وبين دسائس الخديو توفيق وبطانته .

ونظرت « إنجلترا » ، فوجدتِ الفرصةَ التي طالما تمنتها قد لاحت^(١) لها ... كانت تحلُمُ بدخول « مصر » وقد تبدَّد هذا الحلمُ مرةً ومرةً ، ولكنه عاد فلمع لها واستهواها^(٢) .. وفكرت فوجدت في « مصر » عرشاً مهتزاً ، وحاكماً ضعيفاً خائناً ، ودولةً غارقةً في ديونِها ، .. وسُرعان ما صمَّمت على دخول « مصر » ، وما زالت بالسلطانِ العثماني في تركيا حتى أقنعتَه بأنها تعملُ لخيره ، وتحرصُ على إقرارِ النظامِ والأمنِ في مصر له .

وبعد وقتٍ قصيرٍ كان أسطولُها في الإسكندرية ، تحاولُ به دخولَ البلادِ بغيرِ حربٍ ، معتمدةً على الخديو ووعودِهِ ومناصرته .

ولكن الزعيمَ أحمد عرابي صمَّم على القتال ، وحاربَ حرباً بطوليةً شريفةً ، قاومَ فيها هو ورجاله أعنفَ مقاومةٍ ، ووقف فيها أمامَ دولةٍ عظمى هي « إنجلترا » ، وخليفةٍ ضعيفٍ متخاذلٍ في تركيا ، وحاكِمٍ غادرٍ في « مصر » . انضم إلى

(١) لاحت : ظهرت .

(٢) استهواها : اجتذبتها .

جانب العدو، وأذناي خونة، باعوا أنفسهم له بالمال، وساندوه طمعا في أعراض ذاتية وضیعة .

وأخيراً دخل الإنجليز القاهرة، وخضعت لهم مصر، حين استسلم « عرابی » ومن معه .

ولا ينسى تاريخ الثورة العرابية كفاح النديم .. كان رجلاً بفرقة من الجيش، وكان لسان مصر المعبر عن آلامها وآمالها، بخطابته في الندوات والمحافل والمجتمعات الشعبية، وبقلمه في المقالات والموضوعات النارية التي يحررها في الصحف .

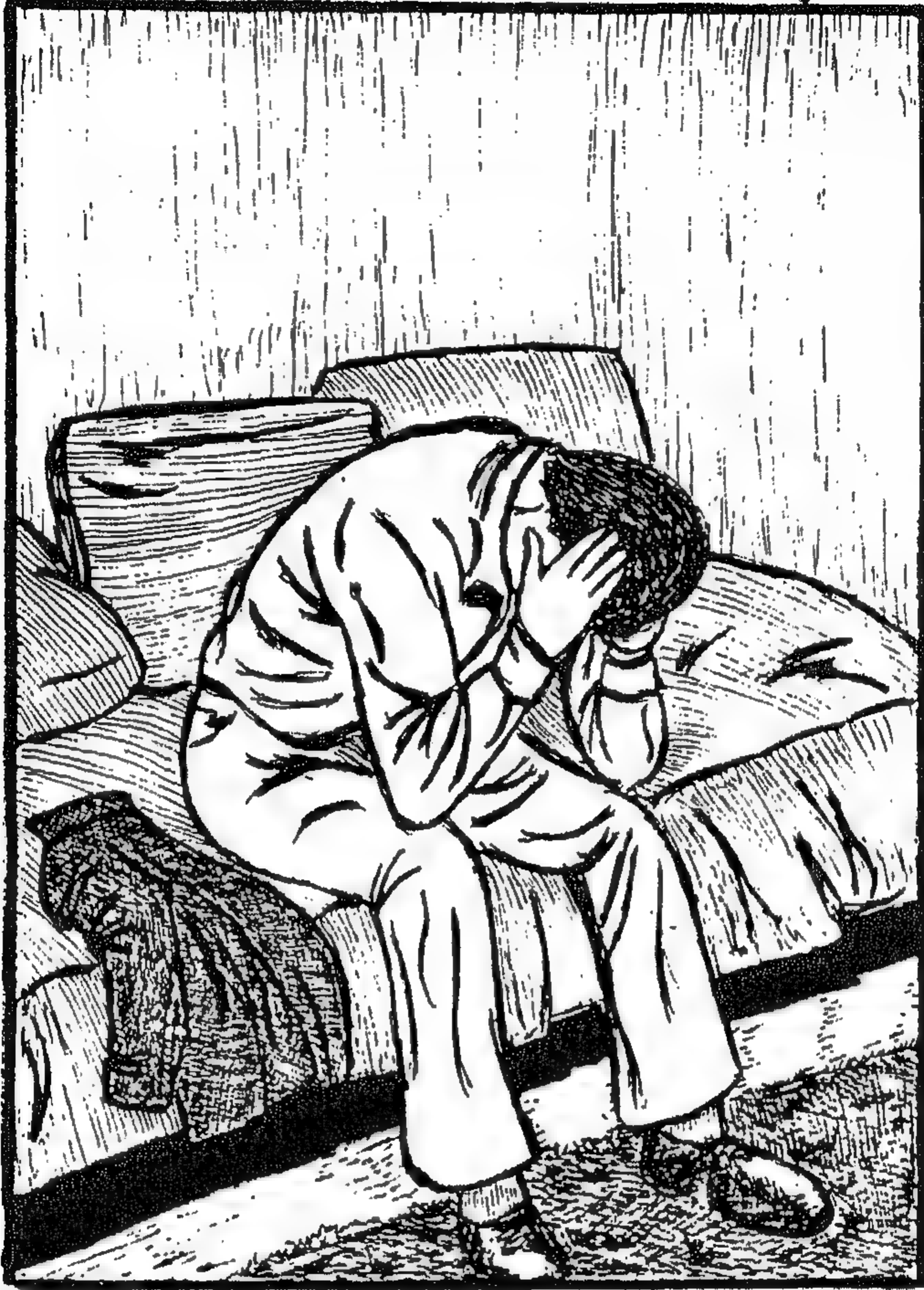
وكان إلى جانب « عرابی » زعيم هذه الثورة ومحور الحركة النضالية فيها، يتنقل كالطير هنا وهناك، ليكشف عن السرايب^(١) المظلمة لخيانة الخديو وحكومته وأذنايه، ويعمل على اجتذاب القلوب للانضمام إلى الثورة ومناصرتها بالعقول والمشاعر والأموال والأرواح، كما كان المستشار المؤتمن لها في وقت غمى فيه الطريق على السائرين به من المجاهدين المخلصين .

ويصور النديم أثر الخيانة في هزيمة الثورة العرابية، فيقول في حديثه عن معركة التل الكبير :

« في نصف شوال^(٢) قام الجيش وتحول، وهجم على العدو الهجوم الأول، واندفعت العساكر كالسيل، إلى أن دخل الليل، فبعد أن ظهرت للنصر آية، رجع على يوسف وأرجع ألامه، فانفصل الجيشان، وخمدت النيران، فقلت

(١) السرايب : الأبنية الخفية تحت الأرض .

(٢) سنة ١٢٩٩ هـ



« لعرايى » باشا إن هذا الرجل يريدُ لنا العِثَارَ ، وهو الذى خدَّلَ العساكرَ بالفرار ، فإما أن تحاكمه محاكمةً عسكرية ، وأما أن ترسله إلى ديوانِ الجهادية . ولكن الزعيم تهاون فى القضاءِ على هذه الخيانة ، فكانت من أهم أسباب القضاءِ على ثورته .

كذلك كان النديمُ من الثورةِ العراقية وكذلك عاش فى قلبِ نيرانها ، فكان فى كل خطوةٍ من خطواته فيها معرضاً للسجن أو القتل أو النفى ، ولكن عنايةَ اللهِ رعته ليُتمَّ رسالته ونضاله .

اختفاء النديم

احتل الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ .

وأصبح كلُّ شيءٍ بها في أيديهم: «الخديو توفيق» وحكومته ، وأذناؤه من الخونة الخارجين على الشعب ، ثم ما يملك هذا الشعب من أرض ومال وخيرات . وجاءت ساعة الحساب ، وتنمر هذا الخديو للانتقام من «عرايى» وأنصاره ، ونسى أنه كان يقف أمامه بالأمس القريب كالفأر المدعور .. فأوعز إلى رياض باشا رئيس حكومته أن ينكّل^(١) بهم . وكان رياض أشد من سيده رغبة في هذا الانتقام وحرصاً عليه .. فنهض هو وأذناؤه بهذا العار على أشنع^(٢) صورة : شنقوا نفرأ ، وسموا نفرأ ، وساقوا إلى السجن أفواجا من المصريين المخلصين . وفي ضحى اليوم الثالث من ديسمبر عُقدَ مجلسٌ لمحاكمة «عرايى» ، على رأسه أحدُ العسكريين من الإنجليز .

وجيء «عرايى» فوقف مرفوع الرأس أمام هذا المجلس .
وثُلِيَ عليه قرارُ الاتِّهام بعصيانهِ لأمير مصر الخديو توفيق .
ورُفعت الجلسة . ثم أعيدت في اليوم نفسه ، ونطق رئيس المجلس بالحكم ،

(٢) أشنع : أفظع

(١) ينكّل بهم : يشدد عليهم العقاب

وكان الإعدام .

فرح أعداء « عرابي » بهذا الحكم ، وتمنى رياض في أعماق نفسه أن ينفذ ولا يبدل ، وعقد مجلساً استثنائياً صورياً لذلك ، عرض فيه الأمر على اللورد « دفرين » القائم بأمر الاحتلال الإنجليزي في مصر ، وزين له إقرار حكم الإعدام ؛ كى ينزاح « عرابي » من وجه الخديو والإنجليز ، ويخمد^(١) أنصاره من بعده ، ولكن « دفرين » سأله كما يقول النديم :

أين الدليل ؟

قال رياض : هذا حكم الشرع الجليل .

قال دفرين : النص الشرعي مسلم ، ولكن يقتل مع « عرابي » الخديو والسلطان المعظم ؛ فإن الحرب قامت باتفاق الثلاثة عليها ، وحكمهم بحشد^(٢) الجنود إليها . فوجم^(٣) رياض ، ولم يبد منه اعتراض ، وصدق قول الصادق الأمين : « إن الله ليؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر أو الكافر » .

وعاد المجلس إلى الانعقاد ، فأعلن أن الخديو تعطف فأبدل بحكم الإعدام النفي مدى الحياة .

ووسط غبار هذه المحاكمة كان البحثُ جاداً عن مستشار « عرابي » وساعده وخطيب ثورته ، وعدو الخديو وحكومته وأذنايه : « عبد الله النديم » ، ولكن هذا الرجل اختفى فلم يعرف مكانه أحد .

(٢) حشد : جمع

(١) يخمد : يسكن .

(٣) وجم : سكت على غيظ .

وذُهِلَّت^(١) ، الحكومة .. لقد بذلت ما تستطيع للكشف عنه .. أبلغت
مدن القطر وقراه أوصافه ، وعيّنت له الجواسيس في كل مكان ، وجعلت لمن
يدل عليه ألف جنيه ، وكان ذلك مبلغاً ضخماً في تلك الأيام ، وطلبت إلى
رجال الشرطة أن يعملوا المستحيل للقبض عليه ، وتوعدت من يخفيه أو
يساعد على إخفائه بالإعدام ، ولم تقف محاولاتها عند مصر وحدها ، بل
امتدت إلى خارج البلاد كالشام وإيطاليا .. ولم يغني كل ذلك عنها شيئاً .
لم يُبلغ أحد عن النديم ، ولم يقدم الرجل نفسه للمحاكمة ، ولم يكن عن
جبن فيه ، أو خوف من العقاب ، وإنما كان نوعاً من التحدي للحكومة ، ومن
الاحتقار للقائمين على أمرها .

وطال اختفاء النديم حتى بلغ تسع سنوات .
وساعد على اختفائه حب الناس له و« لعرابي » الذي جاهد معه ،
وكراهيتهم للخديو الذي سخرهم للأتراك والشراكسة ، وباع حرية بلادهم
وكرامتها للإنجليز .

كما ساعد على هذا الاختفاء براعة النديم في التخفي ، وقدرته على خداع من
يرؤونه .. ومن مظاهر هذه القدرة :

أنه كان يغيّر من شكله ، فيطيل شعر رأسه حيناً ويقصره حيناً ، ويرسل^(٢)
شاربه أو يقصّه ، ويطيل لحيته أو يحلق شعرها .

وكان يبدّل من ملبسه ، حتى يطابق ما يدّعيه حين يسأل عن نفسه وعمله ؛

(١) ذهلت : اضطربت حتى غفلت عما يعنيه .

(٢) يرسل شاربه : يتركه دون أن يقصه أو يقصره .

فقد يرتدى حلة حين يريد أن يظهر في مظهر سائح وافد ، أو يتزىي^(١) بزى المتصوفين حين يعن^(٢) له أن يبدو وكأنه واحد منهم ، بجبته وقفطانه وعمامته الخضراء ، ومسبحته الطويلة التي يطوق بها عنقه ، وربما اختار جلباباً ، أو سروالاً وقميصاً ورداءً^(٣) ، أو غير ذلك مما يضلُّ به من يحاول أن يتعرفه . كما كان يخالف من لهجته ، حتى توافق ما يتحدث به عن نفسه ، من أنه شامي أو مغربي أو حجازي أو صعيدى أو غير ذلك .

وكان يُحكِّم^(٤) من الحديث ما لا يشكُّ فيه محدثه ، مثقفاً كان أو عامياً ، متعلماً أو جاهلاً ، جمَّ المعرفة الدينية أو الخبرة الدنيوية . حدث عن نفسه أنه : « جلس يوماً على إفريز محطة طنطا ، ينتظر القطار القائم إلى كفر الزيات ، وكانت الحكومة قد أرسلت الجواسيس في أكثر البلاد للقبض عليه ، فلقية هناك فريق اشتبهوا في أمره ، وقد عرفهم وهم له منكرون^(٥) . فما زال يحدثهم حتى اعتقدوا أنه رجل من الصالحين المقربين ، فلما جاء القطار أوصلوه إليه ، وحملوا معه أمتعته ، وظلُّوا وقوفاً إلى أن أوشك^(٦) القطار أن يتحرك ، فقبلوا يديه ، وسألوه الدعاء » .

بهذه الوسائل خفيَ النديم عن أعين الحكومة ، فكان بالقاهرة عند أحد أصدقائه الأوفياء من أبناء الأزهر ، في مكمن^(٧) خفيٍّ عن أعين الشرطة وظنون الجواسيس ، وكان بطنطا في رحاب^(٨) الشيخ شحاتة القصبي أحد المتصوفين

(١) يتزىي بزیه : يلبس ملبسه . (٢) يعن له : يظهر له .

(٣) رداء : الرداء ما يلبس فوق الثياب كالعباءة .

(٤) يحكم : يتقن . (٥) منكرون له : جاهلون به .

(٦) أوشك : قارب . (٧) مكمن : مخبأ .

(٨) رحابه : دوره وساحاته .



الذين يتهافون عليهم الناس ، التماساً لهدي أو بركة أو عطاء ، ثم كان في « العتوة »^(١) القبلية عند عمدتها الشيخ محمد الهمشري ، وفي داره قضى ثلاث سنوات ، تزوج فيها ، وولدت له طفلة ، ثم ماتت .. وهو بعد ذلك بشباس الشهداء في رعاية الشيخ إبراهيم حمروش ، ثم في « الجميزة »^(٢) عند أحد الأعيان بها ... وفي الجميزة لمح أحد الجواسيس ، فأبلغ عنه أملاً في المكافأة ،

(١) العتوة : بلد بقطر من أعمال مديرية الغربية .

(٢) الجميزة : بلدة على مقربة من طنطا .

وسُرعان ما قبضت عليه الشرطة ، ونُقلَ إلى سجن طنطا سنة ١٨٩٢ ..
وخاب ظن من أبلغ عنه ؛ لأن فترة المكافأة كانت قد انتهت ، ولأنه عرّض نفسه
وعرضه لألسنة أبناء الوطن الأحرار .

وقضى النديم في السجن فترة لم تطل ؛ لأن الخديو حاول عبثاً أن يتقرب إلى
الشعب ، فأصدر أمره بالعفو عن النديم ، مع نفيه إلى خارج القطر ..
ونُفي النديم ، فذهب إلى « يافا » ، وأخذ يتنقل بين بلاد فلسطين ، بعيداً
عن وطنه ؛ حتى مات « توفيق » وتولى عباس حلمي الثاني ، فأباح عودته إلى
مصر .

* * *

وخلال هذا الاختفاء الذي امتدّ زمناً غير قصير حُرِمَ النديم حريته ، وعاش
حياةً واجفة^(١) غير مستقرة ، ولكن حبّ الناس هياً له من يُخفيه معرضاً حياته
للخطر ، ومن يتكفّل^(٢) بمئونته وخدمته . ومن يتردّد عليه لإيناسه ، ومن يحمل
عبء المراسلات بينه وبين أبيه وشقيقه ، ومن يوفر له المراجع ليقراً ويطلع
ويؤلف .. وكان من هؤلاء صديق النديم ، ضرب المثل الأعلى للوفاء وحسن
الصحبة ، مع أنه غربي فرنسي ، وليس من مصر أو من أبناء العروبة .

* * *

(٢) يتكفل : يتعهد ويلتزم .

(١) واجفة : مضطربة خائفة .

كفاح النديم في أخريات حياته

عاد النديم من منفاه في الشام إلى مصر الحبيبة. وقرت عينه بالعودة إليها ، وبالجو الجديد الذي وجدّه بها ؛ فقد مات الخديو « توفيق » بمظالمه وضحاياه ، وخبث بموته شغل الفتنة التي كان يلهبها أذناؤه ، وتولى العرش بعده الخديو عباس حلمي الثاني ، وكان فتياً متحمساً ، يعمل على التقرب من الوطنيين ، ويودّ لو أزاح عنهم كابوس الاستعمار الإنجليزي .. ولمس النديم فيه هذه الروح ، واطمأن إليه ، فتحوّل عن محاربة القصر ، ووجه ضرباته إلى المستعمرين المعتدين .

وكان على يقين من أنه يواجه عدواً صلباً ، بيده الأمر في مصر ، مع ما يحاول الخديو من إضعاف سلطانه .. كذلك كان على يقين من أنه لو قدّم الصمت ثمناً لمنصب يريدّه ، أو مالٍ يعيش منه في ترفٍ ونعيم لكان له من المنصب ما شاء ، ومن المال ما أراد ... ولكن النديم لم يضعف أمام السلطان الغاشم^(١) ، ولم يستهوه^(٢) المال ببريقه وجاذبيته ، وحمل بقلمه ولسانه على الإنجليز حملة هزتهم هزة شديدة ، حتى خيل إليهم أن هذا الوطني العائد سيُشعل عليهم ثورة كثورة عراقى .

(١) الغاشم : الشديد الظلم .

(٢) يستهوه : يجتذبه .

وقضى النديم فترةً أخرى من النضال الراسخ المتتابع الضربات ، استطاع فيها أن يكشف الإنجليز ويفضح أسرارهم ونواياهم ، وأعانه على ذلك موقف الخديو منهم ، وظهور الزعيم مصطفى كامل بدعوته الرائدة إلى الحرية والاستقلال .

ولم يسكت عنه الإنجليز ، وما زالوا به حتى تقرر نفيه خارج مصر ، فعاد إلى يافا مرة ثانية .

وهناك صمم على متابعة الجهاد ، فجرد لسانه لمحاربة الفساد في دائرة أوسع ، هي دائرة الخلافة في تركيا ، وخشيت بطانة الخليفة العثماني أن يثير غضب الخليفة عليهم ، فدسوا له عنده ، وألهبوا صدره عليه ؛ حتى قرر إبعاده عن الشام .

وحار النديم : أين يذهب ، وهو مبعّد عن وطنه ، ومبعّد عن دار الخلافة ؟!! وكان الموقف أليماً ، لكن بعض رجال البطانة ، توسّطوا له عند الخليفة فعفا عنه ، وقبله في دار الخلافة ، وألحقه بإحدى الوظائف بها . وفي تركيا قضى النديم الثائر الحائر أخريات حياته ، ولم تسلم أيامه في هذه الفترة من الصراع بينه وبين من اتصل بهم من رجال الحاشية ... وأخيراً أسلم روحه في الآستانة ، ودُفن في إحدى المقابر بها سنة ١٨٩٦ ، بعيداً عن ثرى مصر التي أحبّها ومنحها قلبه وعقله وحياته .

ختام في كلمات

لم تطل حياة النديم كثيراً ؛ فقد كان كلُّ عمره ثلاثاً وخمسين سنة ، بدأت عام ١٨٤٣ ، وانتهت عام ١٨٩٦ ، ولكن هذه السنوات ، مع مرّها السريع ، عاصرت حقبة^(١) من تاريخ مصر ، حافلة بأحداثها ، متميزة بما تركت في هذا التاريخ من آثار ؛ فقد شهدت اتران سعيد ، وخطرة إسماعيل ، وخيانة توفيق ، ووطاة الاستعمار الإنجليزي ، كما شهدت ثورة عرابي ونضال مصطفى كامل ، ويقظة الشعب على هذا النضال القويّ المستنير .

وكان النديم من صناع هذه اليقظة ، ومن حملة الأعلام الذين قادوا مواكب الشعب على درب^(٢) الحرية ، في وقت كانت الحرية فيه طريقاً إلى السجن والنفي والموت .. وبهذه التضحية والروح الفدائية ترك لنا من حياته كتاباً قيماً^(٣) حافلاً^(٤) بالدروس المضيئة ... ومن هذه الدروس :

نزعته العصامية :

فقد عجل بالاعتماد على نفسه في معيشته وحياته ، وأبى أن يظل عبثاً على أبيه ، كما يفعل أكثر الأبناء في متجمعاتنا الشرقية .

تعليم نفسه بنفسه :

فمع تركه للدراسة المنظمة في جامع إبراهيم باشا تعلّم حرفة « الإشارات

(١) حقبة : مدة .

(٢) درب : طريق .

(٣) قيماً : ذا قيمة .

(٤) حافلاً : مليئاً .

البرقية » ، واعتمد عليها في حياته الوظيفية .. ثم كانت له مدرسة أوسع هي مدرسة الحياة ؛ ففي هذه المدرسة نمت مواهبه الأدبية ، ومعارفه الإسلامية ؛ بالقراءة الواعية الدائبة لدواوين الشعر ومأثورات^(١) الرسائل والخطب ، وكتب النوادر والطرائف^(٢) ، وألوان الأدب الشعبي على تنوعها واختلافها ، ثم بالاتصال بالكتب الدينية ، وبأصدقائه من أبناء الأزهر الذين استمرت علاقته ببعضهم أمداً^(٣) طويلاً ، وإلى ذلك كله كان شديد النهم بقراءة ما يقع في يده من كتب التاريخ والسياسة والاجتماع ، وغيرها وغيرها من وسائل الثقافة العامة .

طموحه :

فقد نشأ النديم فقيراً مغموراً^(٤) بعيداً عن الأضواء ، ولكنه كان طموحاً ، يودُّ أن يقفز ، ولا يحبُّ أن يخطو في صعود السلم درجة درجة .. ولعله كان يريد أن يكون نديم العظماء وسميرهم ، وحين نجح في ذلك تحوّل عنه ، وتمنى لو كان لسان الشعب المعبر عنه خارج الجيش ، كما كان « عرابي » المعبر عنه في صفوف الجيش ، وتحقيق له الكثير مما تمنى فقد أصبح من كتّاب الصحف الوطنية في عصره ، كما كان خطيب الثورة العربية ، لا ينازعه في ذلك منازع .

ثباته على مبدئه :

فقد كان وطنياً يحبُّ مصر ، كما يحبُّ أن تكون للمسلمين جامعة تجمعهم في دولة إسلامية كبرى .. وفي سبيل هذه العقيدة عاش ، ومن أجلها انضمَّ إلى « عرابي » وإلى الثورة العربية ، وعلى هديها حارب القصر ورجاله . والإنجليز وأذنابهم ، وعرض نفسه للسجن ، وللنفي مرة بعد مرة ، بل للإعدام مع من

(١) مأثورات الرسائل : الموروث منها (٢) الطرائف : النوادر
(٣) أمداً : زمناً . (٤) سباته : غفلته وعدم وعيه

أُعيدَ من الوطنيين .

قهره لليأس :

كان اليأسُ يطارِدُ النديم .. طارده حين تخلى عنه أبوه ، وحين فُصِّلَ من وظيفته ، وعندما غَضِبَ عليه الخديو ودافع عنه على باشا فهمى ، وعندما قرر « رياض » إقصاءه عن البلاد ثم تراجع ، ولما ألقى القبض عليه بعد اختفائه ، فقد نفى ثلاث مرات : على يد « توفيق » ، و « الإنجليز » ، و « السلطان عبد الحميد » .

ومع ذلك كله وقف شامخ الرأس ، طلق اللسان ، قويا على الأحداث ، يناضل حتى آخر نفس في حياته ، ويقاوم والطريق كله أشواك وعقبات .. حمل راية الجهاد المدني لتنوير الشعب وتحريره ، والشعب يدفع إلى اليأس بغفلته وسباته^(١) .. يقول : « كنت أنكر على أهل البلاد وقوفهم تحت ردم^(٢) الاستبداد ، وكلما نهت عاقلا أسكتني ، فإن ألححت عليه بكتني^(٣) » ، ورفع هذه الراية والحكومة تحارب كل من يلوح بها للشعب لينبئه أو يوقظه ... ثم تنقل في البلاد يخطب ، وأطلق قلمه في الصحافة محرر المقالات النارية والجو من حوله جو عسيف^(٤) وإرهاب ، والناس في خوف وفزع مما يحل بهم من عذاب . يقول : « كنت أجد في أغلب الطباع جبنا ، وعند الأمراء والوجهاء غبنا » .. ووقف في وجه الخديو والخونة ، وتصدى للإنجليز ومن يناصرهم ، وحاربه حاشية السلطان عبد الحميد ، ومع ذلك كله لم يئس ، وظل حتى آخر أيامه يجاهد بقلمه ولسانه ، ويضحى بكل ما يملك في سبيل وطنه ومبادئه .

(١) ردم : الردم ما يسقط من حجارة الجدار نحوه .

(٢) بكتني : وبخني .

(٣) عسيف : ظلم .

(٤) مغمورا : غير معروف .

مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

- | | |
|-------------------------|--------------------------|
| ١ — حافظ إبراهيم | ٨ — علي مبارك |
| ٢ — محمود سامي البارودي | ٩ — محمد فريد |
| ٣ — عباس محمود العقاد | ١٠ — جمال الدين الأفغاني |
| ٤ — أحمد عرابي | ١١ — محمد كريم |
| ٥ — طه حسين | ١٢ — عمر مكرم |
| ٦ — مصطفى كامل | ١٣ — عبد الله النديم |
| ٧ — سعد زغلول | ١٤ — الإمام محمد عبده |

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثنى ٥

Bibliotheca Alexandrina



0693075